مصر
الرسالة
العدد رقم 885
19 يونيو 1950

دراسات أدبية :

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة

١ — الشعر الجاهلي الذي اتخذه الشعراء في مختلف العصور أصلاً يحتذون حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ويقلدونه في مناحيه الفنية والأدبية تقليداً كبيراً ، هذا الشعر هو الذي نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

٢ — وأول ما نذكره في هذا البحث آراء الجاهليين أنفسهم في الشعر الجاهلي ونقده ، وهذه الآراء كثيرة متعددة ، طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية في الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .

فأنت تعلم أن كل قبيلة في الجاهلية كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر ، فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدم مهلهلاً ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبي دؤاد وهكذا .
وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً ، وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ القيس هو سابق الشعراء ، ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما نعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء ، فكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ .

ما يوسوس به الفكر ويهمس ، وهي لا تجد بين جنبيها مفكراً يواجه أرسطو ويقف له .

وفي عام واحد وستين وستمائة من الهجرة طلعت « حران » بمولود اسمه أحمد ، لم يكن العالم يقدر أن فيه البغية المنشودة ، ولكنه ما شب وترعرع وبدهت بوادره حتى علقت به الآمال في ذلك المجال ، ولم يكن غير ابن تيمية .

ومن قبل ابن تيمية كان أبو البركات البغدادي يصاحب أرسطو في منطقه ويصاول معه صولات . وتكاد تظفر بأول فرسان هذا الباب من كتابه المعتبر فيه الكثير من هذه المواثب[1] .

إلا أن ابن تيمية ، والحق لا يخفى ، يكاد يكون المجلي المعول عليه والعدد الكامل ، وبودي أن أشرك القارئ معي فيما أحدث ، ولكني لن أجد في صفحات الرسالة ما يسعف ، وحسبي من ذكره ما يحفز كل مفيد أن يرجع إليه ، ليعرف من ابن تيمية ما عرف لأرسطو .

إبراهيم الإبياري

---

(١) هذا الكتاب طبعته دائرة المعارف العثمانية

دعت إلى صادقة من المفكرين أن ينهوا الخلاف بين النقليين والعقليين عند هذا فشمروا للتوفيق بين الرأيين ، مؤولين ما استطاعوا إلى التأويل سبيلاً ، متخففين من أقوال الحكماء ما لا يجد دليله من كتاب أو سنة ، فمنهم من أبعد ومنهم من قارب .
وقد كانت محاولات أولى فيها بالغلو إخوان الصفا ومن لف لفهم كالباطنية والإسماعيلية . وإذا ذكرنا الإسماعيلية ذكرنا ابن سينا الذي نشأ في حجورهم وغذوه بلبانهم وكان له جولة في هذا الميدان كان فيها كالظل لأرسطو .

وتمخضت الأيام عن شيخ من شيوخ الإسلام نشأ والباطنية في عنفوانها يجول في هذا الميدان جولات على نهج من التوفيق والجمع بين الرأيين ، أسلم منهجاً وأقرب إلى إنصاف أهل السنة وإرضاء المتدينين ، وكان هذا الشيخ الحجة أبا حامد الغزالي .

ومضى الغزالي عام خمس بعد الخمسمائة والعالم الإسلامي في لهفة إلى مفكر يقف لأرسطو في منطقه موقفاً أكثر إرضاء وأقوى إشباعاً ، فقد انطوت النفوس على شيء لم تملك برهانه بيانه وحجة تزكيه ، ومضت مع راسخ ما تؤمن به وتعتقد تغالب

خاتمة الشعراء، وتنشده أشعارها، أتاه الأعشى يوما فأنشده، ثم أتاه حسان فأنشده، فقال: لولا أن أبا بصير — أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقال: حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك؛ فقبض النابغة على يده وقال: يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدته الخنساء:

قذى بعينك أم بالعين عوار ... أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

فلما بلغت قولها:

وإن صخـــرا لتأتم الهداة به ... كأنه علـــم في رأسه نار

قال: ما رأيت امرأة أشعر منك، قالت ولا رجلا

وحكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة الفحل الشاعرين، وتفضيلها علقمة على زوجها امرئ القيس، مشهورة ولا داعي لذكرها، فلها حديث آخر إن شاء الله.

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه التوءم والقعقاع، فاستنشدهم، فقال إني لأعجب كيف لا تشتعل عليكم نارا جودة شعركم، فسموا بني النار.

وروى المرزباني في كتابه «الموشح» أن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي الشاعر في الشعر أيهم أشعر، فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن؛ لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئا فينتفع به. وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر. وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم. وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر.

كما روى أيضا أن هؤلاء الشعـــراء اجتمعوا في موضع، فتناشدوا أشعارهم؛ فقال لهم عبدة: والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم، فإما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم؛ قالوا: أخبرنا، قال: فإني أبدأ بنفسي: أما شعري فمثل سقاء شديد وفيره من الأسقية أوسع سقة، وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأعفاجها

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر في العصر الجاهلي؛ وأكثره لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء.

٣ — وجاء الإسلام فكان له ولرسوله الكريم موقف جليل من الشعر الجاهلي، أنكر بعضا، وعرف بعضا؛ أنكر هذا الشعر الذي ينافي الأخلاق الكريمة والمثل العليا، من الغزل الفاحش، والمجون الخليع، والهجاء الكاذب، والمدح الزائف، والفخر المعنى في الغلو والمبالغة؛ وعرف هذا الشعر الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية في سبيل الأمة والإنسانية؛ فكان هذا الموقف الخالد للإسلام ونبيه العظيم توجيها جليلا لرسالة الشعر، وتوجيها نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير، ومجال الحق والعدل والحرية والنور، وكان نقداً عنيفاً للشعر والشعراء الجاهليين، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب. وظهر أثر الإسلام والقرآن في تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه، وفي البعد به عن الحوشية والغرابة وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة. كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وشتى الأمور

٤ — وفي عصر دولة بني أمية انتشرت العصبيات، وكثرت الخلافات السياسية والمذهبية، وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم، فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة، ولسانا لإذاعة عاداتهم ومفاخرهم، وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلي، والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه؛ ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلي نقدا يتصل بالإعراب، وكان ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يتشددان عليهم، وكان عيسى يقول: أساء النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه: ناقعا»(١)

٥ — ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني

(١) ٤ الموشح للمرزباني و ١١ و ١٢ ابن سلام

الهجري . أبو عمرو بن العلاء البصري م ١٥٤ هـ ، وحماد الراوية الكوفي (٧٥ – ١٥٦ هـ) ، وخلف الأحمر البصري م ١٨٠ هـ ، ويونس البصري م ١٨٢ هـ ، والمفضل الضبي م ١٨٩ هـ وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب « المفضليات » وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً . ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين وإن كان الراجح أن حماداً سبقه في هذا الميدان . ومنهم ابن السكيت م ٢٠٤ ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الجمهرة م ٢١٥ هـ ، وأبو عبيدة البصري م ٢٠٩ هـ صاحب « النقائض » و « مجاز القرآن » ، والأصمعي البصري م ٢١٦ هـ (٢)

كان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامي . ويروى عنه : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليماً لهم

وكان المأمون على رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية

وكان الأصمعي مع تحامله على المحدثين وشعرهم معتدلاً في عصبيته للشعر الجاهلي ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس في قوله في وصف الفرس :

وأركب في الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

والخيفانة في الأصل هي الجرادة وتشبه بها الفرس في الخفة ؛

قال الأصمعي : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريماً ، كما عاب غير امرئ القيس من الشعراء . وكان يقول : ختم الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموي مشهور

٦ – وفي القرن الثالث الهجري نجد النقاد في موقفهم من الشعر الجاهلي طائفتين :

١ طائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجاباً شديداً ، ولا ترى الشعر إلا لهم ، ومن هؤلاء ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزري بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء . وكان يعيب شعر أبي نواس وأبي تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة . وقال في بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء . ومنهم أيضاً إسحاق الموصلي م ٢٤٠ هـ ، وكان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار ، ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك في الغناء ، كان يتعصب للغناء القديم ، وينكر غيره ويعظم الأقدام عليه . ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأوربية ، فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن تدرس ليلاً ونهاراً ، لأن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه . واعتذر الباقلاني عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعاني . واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى الشاهد والمثل وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ولكن الجرجاني في الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم . (٤٩ و ٥٠ وساطة طبع بيروت)

وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي والطبع وحده في الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم في الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ والمبرد م ٢٨٥ هـ وابن المعتز م ٢٩٦ هـ

يقول ابن قتيبة في أول كتابه الشعر والشعراء : « ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون

(٢) كان لهؤلاء الرواة أثر كبير في الشعر الجاهلي، فقد وضعوا الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، واضطروا لذلك إلى جمع الشعر وروايته وتدوينه